اللسان العربي والجنسانية(*)

الطاهر لبيب(**)

مدير عام المنظمة العربية للترجمة.

لما كانت دراسة العبارة اللسانية، في جوهرها، بحثاً عن الدلالات؛ فهي تصطدم، بدءاً، بمعطى أساسي: لا يستطيع الإنسان التعبيرَ إلا عمّا تسمح له اللغة (Langage) بالتعبير عنه. وأكثر من ذلك، إن هذه اللغة، شاء ذلك أم أبى، تفرض عليه مكتسباتها والمضمونَ الثقافي لذاكرتها. هذه «الحتمية»، التي من بين أخطر نتائجها أنها تستحضر أبعد الذكريات، في الوقت الذي يُراد فيه النظرُ إلى الحاضر المباشر، وأنها تساهم في توسيع التباعد بين ما يسمى دالاً وما يسمى مدلولاً، لا يبدو أنها أوحتْ بما يكفي من الحذر الضروري في تأويل العمل الأدبي العربي.

على أن الجنسانية (Sexualité) ربما تكون المجال الذي يكون فيه رأي اللسان (Langue) أكثر تملّكاً للحجج وأكثر مقاومةً للزمن. ومع ذلك، فالجنسانية، هذه القوة المولدة للعالم، هي لغزٌ، بامتياز. إن الرغبة التي لا تنفك تجذب الجنسين، أحدهما إلى الآخر، هي رمزٌ لشيء يبقى، دوماً، خارج ما يمكن العثور عليه، كما يبقى غامضاً وغير قابل للفهم. «إن لغز الجنسانية، كما كتب بول ريكور (Paul Ricœur)، هو أنها تبقى غير قابلة للاختزال في الثالوث الذي يصنع الإنسان: اللغة ــ الآلة ــ المؤسّسة. إنها تنتمي، فعلاً، إلى وجودٍ ماقبل لساني للإنسان، وهي حتى عندما تكون تعبيريةً، فعبارتها هي تحتَ ما هو لساني وخارجه وفوقه. إنها تحرك اللغةَ، قطعاً، ولكنها تخترقها وتهزها وتصعّدها وتبلّدها وتشظيها في الهمس والابتهال، وتزيل عنها وساطة الاتصال. إنها إيروس (Eros) وليست لوغوس (Logos). وهكذا فإن استعادتها كاملةً، في عنصر اللوغوس، تبقى مستحيلة استحالة تامة» (Ricoeur, 1960). هذه صعوبات كان يمكن أن تكون فعلية لو كنا نسعى إلى إدراك اللغز، لكن الأمر ليس كذلك، على وجه الدقة: ما هو مطروحٌ هنا، تحديداً، هو توقع مواجهة «الحتمية» اللسانية، عندما يتعلق الأمر بالتدليل على أن تجنيس اللغة العربية القوي يرسم علاقة مفهوميةً هي، في جوهرها، ثابتةٌ بين الجنسين. ومما يزيد من أهمية هذا، أن ترسيمة هذه العلاقة سيتم

(*) هذا المقال هو الفصل الأول من كتاب: الطاهر لبيب، **سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً**، ترجمة المؤلف، علوم إنسانية واجتماعية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩). وقد أعيد نشره بإذن من المنظمة.

(**) البريد الإلكتروني: info@aot.org.lb.

تعديلها، بصورة خاصة، في عالم العذريين الشعري الذي يسعى هذا العمل إلى تحليله.

من المؤكد أن تجنيس اللغة يتم في مستوى من الاتصال هو جنسي ولساني، في آن واحد: لقد أثرى اللغةَ الجنسية «تحريرُ» المرأة المتقدم، نسبياً، في بعض أوساط العصر الأموي، كما سهل، عكساً، تجنيسُ اللغة الاتصالَ بين الرجل والمرأة، بالرغم من المنع الديني. وما يلفت الانتباه في هذا التقارب بين الجنسين، هو قيام الكلام مقامَ صاحبه، بدءاً بالشاعر نفسه. كثيرةٌ هي الروايات التي تستسلم فيها المرأة، ذات النسب، للإغراء الجنسي أو لما يقاربه، لا استسلاماً للشاعر وإنما لشعره. الكلام وحده قادر على تعرية هذه المرأة(١). إنه حالما يُقال، يصبح مستقلاً، بمعنى من المعاني، فيكون له دفعه ويُنتج أثره.

وتختلف درجات التجنيس (Sexualisation) وطرقه اختلافاً واسعاً، من مجتمع إلى آخر: قد تكتفي الجنسانية، في مستوى التعبير، بما ينتمي إلى الحركات والإشارات في بعض الثقافات، ولكنّها عند العرب كلام، بل لغةٌ. الجنس واللسان، بمعنيَي الكلمتين، مترابطان في الأخلاقيات الإسلامية. ولقد أورد الجاحظ ما يقال من أن «من حفظ لسانه وفرجه أمن شرور الزمان» (Fahd, 1966: 476). هناك، إذن، تكامل وهناك، تبعاً لذلك، خوف من خيانة متبادلة، محتملة ضمنياً، وهو ما يعني أن الواحد يؤدي إلى الآخر. فريضة الصيام تحتاط من هذه الصلة بين الاثنين؛ ولذلك، فإن الصيام لا يكتفي بالكف عن الأكل والشرب والنكاح، وإنما يتطلب، بحسب القرآن والسنة، صونَ اللسان أيضاً. هكذا يرتبط الصوم بالكف عن الكلام، في حالة مريم: ﴿**فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً**﴾(٢). هذا الربط يوحي به، كذلك، الحديثُ «إذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم، مرتيْن»(٣).

- ١ -

إذا نُظر إلى السلوك الجنسي من وجهة نفسية لسانية، تبين أنه طوّر، إلى حد كبير، القدرةَ المجازية للّسان العربي. هذه المعاينة تدعم الاعتقاد بأن الصورة المجازية المبحوثَ عنها هي «تعويض» أكثر مما هي مجرد عمل فني. إن بعض الوصف الذي يُعتبر بلاغياً، يدفع إلى الاعتقاد بأن الكلمات المختارة لها أثر المنشط أو «الشيء» الجنسي. لننظر كيف وصف الشاعر الخمر (أبو حيان التوحيدي، [١٩٥٣]: ج ٣، ١٤٥):

وعذراء تَرْغُو حينَ يَضربها الفحلُ كما البِكر تَنْزُو حين يفتضها البعلُ

البلاغة العربية مشحونة بالكلمات والتعابير المستعارة من مجال الجنس لتسمية أوجه الأسلوب، فالتضمين، مثلاً، هذا الذي يسميه ماسينيون (Massignon) «انطواءً دلالياً للمفهوم

---

(١) انظر، على سبيل المثال، خبر عمر بن أبي ربيعة وابنة محمد بن الأشعث، في: أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]: ج ١، ص ٩٠.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآية ٢٦.

(٣) نقلاً عن: **المجلة الزيتونية** (تونس) (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٩)، ص ٣٩٩.

نحو الداخل» يعني الطمرَ في الأرض، مقابل التخريج، وليس الحديث عن الإنبات إلا حديثاً عن الإخصاب. ولنُضف أن الضَّمِن، وهو من الجذر نفسه، هو من أوصاف المحب العاشق. لقد رأى ماسينيون أنه وجد في الأضداد حالةً فرويدية. وإذا علمنا أن التضاد قد يكون في المطابقة أو في الطباق البلاغي الذي يجمع بين الشيء وضده في الكلام، فإن صورة الجنسين المتقابلين والمتقاربين، في آن واحد، ترد في الذهن، فعلاً. هناك أيضاً ما يسمى، في النحو، مزاوجةً (والمعنى واضح) غرضها الربط، بالمعنى، بين لفظين. ومثلما هي الحال في الجمع بين الجنسين، فإن المقصود من الطباق ومن المزاوجة إثراء المعنى وإخصابه.

وما دام الأمر متصلاً بالتمييز بين الجنسين، فإن له ما يجانسه(٤)، حتى في بنية النحو ومبادئه: هناك، أولاً، غلبة التذكير، في حال الجمع بين المذكر والمؤنث، وهو ما لا يختص به النحو العربي، لكن هناك ما قد نندهش له، كعدم إفراد بابٍ للمذكر مع إفراد باب للمؤنث، مثلما فعل ابن مالك في ألفيته. ولقد كان منه التبرير الآتي: الأصل في الاسم، هو التذكير، وما التأنيث إلا فرع منه. ولأنه كذلك، فهو لا يحتاج إلى علامة تدل عليه، في حين يحتاج التأنيث إلى علامة تدل عليه، وهي التاء المربوطة والألف المقصورة والألف الممدودة (ابن عقيل، ١٩٣١: ج ٢، ٣٠٤).

هكذا يكون للنوع، تذكيراً وتأنيثاً، دور نحوي مجانسٌ لدور من يدل عليه في الواقع. ويجب توكيد أن لهذا النوع استقلاليته: إنه، في حد ذاته، عالٍ أو متدنٍّ. بهذا المعنى يتجه النحو العربي، وهو نحو معياري و«منطقي»، إلى إبراز الهيمنة الذكورية. وإذا صدقنا **الأغاني**، فإن الصدفة شاءت أن يكون الباعث على أول تصنيفٍ في النحو خطأً نحوياً أنثوياً، خطأَ ابنة أبي الأسود الدؤلي (أبو الفرج الأصفهاني، ج ١٢، ٢٩٨ ـ ٢٩٩)، وأن يكون أول أبوابه في التعجب وأفعل التفضيل.

قد لا نتوقع، في العادة، أن يكون فرق في القيمة بين التعريف والتنكير، بين «البيت» و«بيت»، غير أن أبا حيان التوحيدي يستنتج من «أل» التعريف تفوّقَ الذكور، استدلالاً بالبنية النحوية، لا غير: «وجرى حديث الذكور والإناث فقال الوزير: قد شرّف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله عزّ وجلّ ﴿**يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذّكور**﴾(٥)، فقلت: في هذا نظر، فقال: ما هو؟ قلت: قدّم الإناث، كما قلتَ، ولكن نكّر، وأخّر الذكور ولكن عرّف. والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم. ثم قال: هذا حسن. قلت: ولم يترك هذا أيضاً حتى قال: ﴿**أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً**﴾(٦)، فجمع الجنسين بالتنكير مع تقديم الذكران» (أبو حيان التوحيدي، [١٩٥٣]: ١٠١).

---

(٤) مفهوم التجانس (Homologie) مفهوم أساسي في هذا العمل، وهو مستعمل، على وجه التخصيص، للربط بين بنيتين (بنية العالم الشعري وبنية عالم الواقع)، لاستبعاد مقولة «الانعكاس» أو التأثير المباشر. لهذا فإن المقصود بالتجانس هو التجانس البنيوي (Homologie structurale)، على أنه مستعمل، في بعض مواقع النص، مقابل (Homogénéité) وهو ما يتّضح من السياق، بصورة لا لبس فيها.

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٤٩.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الشورى،» الآية ٥٠.

إن «أل» التعريف، هنا، ليس لها طابع مرجعي أو دلالة سابقة الوجود ومعروفة. إنها «شريفة»، في حد ذاتها. إن النوع في النحو له قيمة خاصة به، تتضمن تراتبيةً تسكن اللسان، ولها علاقة تجانسٍ مع التراتبية الجنسية، كما هي في عالم الواقع. لكأن الكلمات، في نهاية الأمر، تتوزع في «طبقات»، بعضها ذو حظوة وبعضها لا حظوة له. لنقلْ، بتعبير آخر، إن اللسان ينقل إلى الإنسان نسقاً من القيم، يوحي إليه ببعض التصنيفات التي قد لا يكون وضَعها لو لم يعرف هذا النسق. سلطة اللسان هذه تتأكد أكثرَ حالما نسأل المعجميين. لنكتفِ باتخاذ بعض مشتقات ذكر وأنثى، كما وردت في **لسان العرب**: ظاهرتان أساسيتان تبرزان وتتّضحان، بسهولة: التمييز الجذري بين الجنسين وتفوق صفات الذكورة.

١ ــ تنتمي مجموعتا المشتقات إلى حقلين دلاليين لا يتداخلان إلا قليلاً، وهذا التداخل يضفي صفة سلبيةً على ما يندرج فيه منهما: دلالة المشتق من أحد الجنسين تصبح سلبيةً عندما تحيل على الجنس الآخر. قد يحرص لسان العرب على توصيف هذه السلبية الناتجة من هذا التداخل، فيضيف، مثلاً، في تعريف الذَّكِرة أو المذكَّرة أو المتذكِّرة «المتشبهة بالذكور»، قولَ بعضهم: «إياكم وكل ذكِرةٍ، مذكَّرة، شوهاء، فوهاء، تبطل الحق بالبكاء، لا تأكل من قِلةٍ ولا تعتذر من علةٍ، إن أقبلتْ أعصفتْ وإن أدبرتْ أغبرتْ». الاستثناء الوحيد، في «إيجابية» الانتقال من حقل إلى الآخر، هو في لفظ (أنثيان)، الذي اشتُقَّ من (أنِث)، ولكن لتوكيد ذكورة الذكر. هذا ما يوضحه، على وجه التبسيط، الشكلُ الآتي:

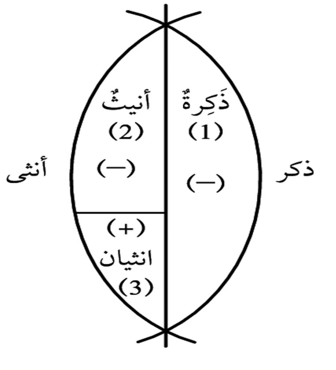

(١) امرأة ذَكِرَةٌ ومُذَكرةٌ ومتذكرةٌ: متشبهة بالذكور

(٢) الأنيث من الرجال: المخنّثُ، شبْه المرأة

(٣) الأنثيان: الخُصيتان

٢ ــ مجموعتا المشتقات التي لا تكون لدلالتها، أحياناً، علاقةٌ مادية بالرجل أو بالمرأة، يشكلان مجموعتين من القيم التي يتعارض الذكر والأنثى في تجسيدها. إن المقارنة بين المجموعتين تفضي إلى تعارض دلالي، ثنائي، واضح في مقابلته بين ما هو إيجابي للذكر وسلبي للأنثى. هذا التعارض هو ما يُبرز الجدولُ الآتي أهمَّ ما يُلفت النظر فيه.

ـ ٢ ـ

ولنشرْ إلى أن ما لم يُذكر من المشتقات، تحاشياً لإرهاق الجدول، لا يغير من التعارض الثنائي الذي توصلنا إليه، بل يؤكده عن طريق الترادف، غالباً. وإذا كان الجدول واضح الفصل بين مجموعتي المشتقات (باستثناء كلمة «أنثيان»)؛ فإن مرد ذلك، كما وضحه الشكل السابق، أن كل انتقال من أحد الحقلين الدلاليين إلى الآخر تنجر عنه سلبيةٌ نوعية.

	أ		ب		ج		د	
	عمودية	أفقية	حركة	سكون	صلابة	هشاشة	وجود الجنس	غياب الجنس
مشتقات «ذكَر»	الذِّكر: الجليل الخطير الواجب إجلاله (في الحديث: القرآن ذَكرٌ فذكِّروه) الذِّكْر: الصلاة لله والدعاء إليه والثناء عليه ـ الشرف والفخر والصّيت ـ المطر الشديد الوابل المَذْكر: موضع الذِّكر الذَّكَرةُ: الذكور من النّسل		الذِّكْر: جريُ الشيء (على اللسان) المُذْكِرُ (الداهية): ما لا يقوم لها إلا ذُكران الرجال المِذْكار: (فلاة) ذات أهوال، لا يسلكها إلا الذَّكر من الرجال		الذَّكَر (من القول): الصلب المتين الذَّكيرُ (من الحديد): أيبسُه وأشده وأجوده وهو خلاف الأنيث الذُّكْرة (للرجال وللسيف): الحِدة والصرامة ـ القطعة من الفولاذ المذكَّر (من الأيام): ما وصف بالشدة والصعوبة وكثرة القتل.		الذَّكرُ: العضو والفحل ـ الرجل الذَّكر: يقال احترازاً من الخنثى المِذْكار: أرض تنبت ذكور العشب الذُّكارة: حمل النخل	
مشتقات «أنثى»		الأنثى: سُمّيت أنثى من البلد الأنيث المئناث والأنيثة (من الأرض): السهلة المُنبِتة		الإناث: قيل الموات، مثل الحجر والخشب والشجر ـ الأصنام، والموات كلها يُخبر عنها كما يُخبر عن المؤنث تفسيراً للآية: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً..﴾(*)		الأُنثى: سميت أنثى للينها الأنيثُ: اللينُ ـ ما كان من الحديد غيرَ ذكر أو غير ذكير ـ سيف ليس بقاطع (والسيف المؤنَّث كالأنيث)	(↑ أنثيان)	لا اشتقاق يشير إلى عضو المرأة الجنسي. أنثيان →

(*) القرآن الكريم، «سورة النساء» الآية ١١٧.

وإذا اتخذنا، الآن، الرجلَ والمرأة مركزيّن لهذين الحقلين الدلاليين، أمكن إضافةُ الملاحظات السريعة الآتية:

١ ـ يبدو الرجل، في المقابلة (أ) أكثر قدرة من المرأة على الاتصال بالله (الذِّكْر) وبالكون (المطر) وبالبشر (الذَّكَرة)، وإنّ في العلاقة مطر/أرض ما يوحي بصورة المرأة التي لا قدرة لها على الإنجاب دون الرجل، وبصورة المرأة المتلقية، في وضع سلبي.

٢ ـ تبلغ سلبية المرأة ذروتها في المقابلة (ب)، إذ لا حراك لها، في حين تعبّر حركة الرجل عن نفسها بخصال أخلاقية (ذكرٌ = شجاع) وتتوجه نحو الفعل. أما المرأة التي يقال فيها ما يقال في «الموات مثل الحجر»...، فيبدو أن سكونها غير غريب عن الأساطير العربية: في الذهاب من مكة إلى عرفات يمر الحاج بأحجار تسمى «النسوة»، وأصل حكايتها أنه زنت امرأةٌ في الجاهلية وحملت، وعندما جاءها المخاض أتت إلى ذاك المكان ووضعت حملها بحضور امرأتين، وقفت إحداهما أمامها والثانية خلفها. ويقال إنهن الثلاث مُسِخنَ أحجاراً (رواه الأزرقي). وبحسب أسطورة أخرى، رواها ابن المجاور، فإن امرأتين تحجّرتا في النقيل، جنوب الجزيرة العربية، وإن العضو الجنسي، لكل منهما، ما يزال يُرى في الصخرة. ويضيف ابن المجاور أنهما ما تزالان تحيضان بانتظام، حتى الآن (Fahd, 1966: 16).

٣ ـ تصبح قوة الرجل، في المقابلة (ج) قوةً قاطعة كالسيف من فولاذ، في حين تخون المرأةَ «طبيعتُها»، فتبقى ليناً، حتى ولو كانت حديداً!

٤ ـ يصل الأمر، في المقابلة (د) إلى حد التمايز بين الرجل الذي يؤكد ذكورته بجنسه ذاته، (الذكر هو الرجل، وهو عضوه الجنسي)، والمرأة التي لا يُشتق من أنوثتها ما يدل على جنسها، مما قد يذكّر بـ «النقص» الذي ذهب إليه فرويد.

اعتماداً على هذا المثال الدلالي، يمكن أن نتوقع، منذ الآن، إلى أي حد كان هذا الشعر الذي نسعى إلى دراسته «عملاً في اللسان». إنه لسان لا ندري كيف أمكن أن يستبطن، في دلالية باطنية، ترسيمةَ علاقات لم ينفك الشعراء عن فك رموزها، وتبعاً لذلك عن تحيينها، أنثروبولوجياً، كلّ بما له من حدس وفهم. لن يكون من المبالغة اعتبارُ أن النقد العربي الكلاسيكي، وهو أساسياً ذو منحى بلاغي، كان له اهتمامٌ حقيقي بالمواجهة بين العمل الشعري، وهذه الدلالة المستبطَنة في اللسان. إن ما ضاق به المحدَثون، مما بدا لهم تشابهاً بين الأغراض الشعرية لم يكن، في العمق، إلا ضرباً من الوفاء العربي لسلطة لسانٍ ثري، إلى حد أن الدخول فيه لا يؤدي إلى صيغ من التعبير، فحسب، وإنما يكشف عن سلوكٍ معيش.

بهذا المعنى يمكن النظر إلى تطور أغراض الشعر العربي ـ وهو، بالضرورة، موازٍ لتطور الأسلوب ـ على أنه تجديد للعمل داخل اللسان العربي. نعم، ولكن من دون الإفراط في تقدير أثر هذا التطور. ذلك أن الترسيمة التي يقترحها اللسان بقيت، رغم التحولات الاجتماعية التاريخية الكبيرة، ترسيمةً مرجعية، خصوصاً في مستوى العلاقة بين الرجل والمرأة. لهذا، عندما حاولت أيديولوجيا الإسلام تطويعها لمقتضياتها، وجدت نفسها تواجه مقاومةً دلالية نسميها اليوم علاقة شكل/مضمون، ولكنها كانت، عند العرب، علاقة شكل/

معنى/معيش. ولقد بيّن اختيار الشعراء العذريين، موضوعاً لهذا العمل، أن أولى التعديلات الشعرية في ترسيمة العلاقة بين الرجل والمرأة، تناسب وضعاً جماعياً متميزاً بهامشيته، بالنسبة إلى مجتمع العصر.

ـ ٣ ـ

ما قلناه يستدعي سؤالاً: كيف أمكن أن يتلازم تجنيسٌ للّسان وفصلٌ بين الجنسين تلازماً يقتضي، أولاً، غيابَ التبادل اللفظي؟ يبدو هذا قابلاً للتفسير بظاهرة عجيبة: هناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المجتمع العربي، في جملته، لا يقبل التوازي بين التواصل الجنسي والتواصل اللفظي، في مستوى الثنائية الزوجية، في حين يتسامح فيه في ثنائيات أخرى. ومهما يكن في الأمر من مفارقة، فإن الزوجة ــ تحديداً ــ هي موضوع القول المفرَغ من عاطفته. إنها هي التي، قبل غيرها، تتيح للرجل إثبات هيمنة ذكوريّة، وأن يتماهى مع الصورة التي يريد أن يحملها الآخرون عنه. لهذا يبحث الرجل والمرأة، سواء كان لهما اكتفاء جنسي أو لم يكن، عن فضاءات يعبّران فيها، شفهياً، عن الرغبة وعمّا هو مكبوت منها. من الأمثلة عن ذلك، تلك «المجالس» التي عرفها العصر الأموي ــ وإن كانت أقدم منه ــ التي كانت تجمع بين الجنسين، في بعض الحرية المنافية لتعاليم الدين أو بدعوى «المزاح» على الأقل. ويبدو أن هذا «المزاح» كان مقبولاً، على وجه الإجمال، بين الجنسين، ما لم يربط بينهما رباط الزواج والنسب (أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]: ج ١، ١٦١)(٧). على أن تبادل القول المجنّس قد يكون بالتراسل خارج المجالس، كما حدث لاحقاً. وقد وصل، أحياناً، حد «الفحش»، كما هي حاله في رسالة ينسبها **كتاب الأغاني** إلى ابن حمدون، مجيباً عن رسالة المغنية العباسية دُقاق. إنه يصف فيها قوة عضوه الجنسي، بكثير من الخيال والبلاغة، ذاهباً في ذلك إلى حد الأخذ من قصيد جاهلي قيل في الحرب (أبو الفرج الأصفهاني، [١٩٦٣]: ج ١٢، ٢٨٣)(٨)!

ألا يمكن أن نرى في غياب تبادل التعبير العاطفي بين الزوجين، جانباً من الدفاع الجماعي التقليدي عن الذات؟ ذلك أنه بقدر ما تزداد حميمية الزوجين، تنغلق ثنائيتهما ويقل انفتاحهما على الآخرين. «إن الأزواج العاشقين زوجاتهم هم استثناء يذكره، منذ القديم، مصنفون، كالكسائي، مثلاً. قد يؤخَذ على الزوج إفراطه في حب زوجته، وقد يُدفع إلى تطليقها (كما رأى الإنطاكي)، تحت ضغط الجماعة أو ضغط رب الأسرة الذي هو تجسيدها المتأخر» (Vadet, 1968: 103). لعل جريراً (المتوفى حوالى عام ٧٣٣)، كان أول من نظم شعراً في زوجته (ولكن بعد موتها) (ابن خطفة، ١٩٦٠: ١٥٤)، ليقول:

(٧) أغلب ما كانت تكون هذه «المجالس» حول الشاعر. وقد كان يحدث أن يُدعى إليها من قبل النساء للتحادث، حتى أوائل الفجر.

(٨) لا ندري إن كان إهمال نص رسالة دُقاق التي تصف فيها عضوهما الجنسي، بصورة عجز معها ابن حمدون عن الرد عليها (والواقع أن مخنثاً أملاها عليه) يعبّر عن موقف ذكوري، في مجتمع ذكوري. وسواء كان الإهمال مقصوداً أو غير مقصود، فهو يحيل على «النقص» الأنثوي المتضمن في اللسان العربي نفسه.

لـولا الـحَـيـاءُ لـعَـادنـي اسْـتِـعْـبَـارُ   ولَــزُرْتُ قَــبــركِ، والــحــبــيــبُ يُــزارُ

قبل هذا، كانت الخنساء (المتوفاة في عهد عمر، وإذن قبل ٦٤٤م)، قد عوّضت صمتَ الزوجين بما تقول الأختُ في أخيها. لقد كان منها الوعد بألّا تبكي غير أخيها صخر. ما خالف ذلك، وهو نادرٌ، توجهت به إلى أخيها معاوية. لم يكن محتملاً، في عهد الخنساء، أن تقول الشعر امرأةٌ في زوجها، كما لم يكن محتملاً عكس ذلك.

هكذا نتفق مع كلود ليفي ستراوس في ما وصل إليه حول الأسرة: «هناك خلاصة مهمة يجب أن تبقى عالقة في الذهن، وهي أنه لا يمكن اعتبار الأسرة الضيقة عنصراً مكوِّناً لجماعة اجتماعية ولا اعتبارها محصلةً لها. وبتعبير أوفى، فإن الجماعة الاجتماعية لا تتكون إلا بتميزها من الأسرة، وإلى حد ما بالاعتراف بها. إن الهم الأول للمجتمع، تجاه الأسرة، ليس أن يحميها ولا أن يقويها، بل أن يحذَرها وألّا يعطيها الحق في وجودٍ مستقلٍ أو دائم» (Lévi-Strauss, 1965: 312). لنضف، للتذكير، أن الحذر من حميمية الزوجين في المجتمع العربي القديم على الأقل، كانت له، إلى حد كبير، مرجعيتُه في التعارض الجذري الذي أقامه اللسان العربي، داخله، بين الذكر والأنثى □

المراجع

ابن خطفة، جرير بن عطية (١٩٦٠). **ديوان جرير**. بيروت: دار صادر.

ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن (١٩٣١). **شرح ابن عقيل على ألفية الإمام أبي عبد الله محمد جمال الدين ابن مالك**. علّق عليه ووضع له تكملة في تصريف الأفعال محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد (١٩٥٣). **الإمتاع والمؤانسة**. صححه وضبطه وشرح غريبه ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين. ط ٢. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر.

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (١٩٦٣). **كتاب الأغاني**. مصوَّر عن طبعة دار الكتاب. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي؛ المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

Fahd, Toufic (1966). *La Divination arabe: Etudes religieuses, sociologiques et folkloriques sur le milieu natif d'Islam*. Leiden: Brill.

Lévi-Strauss, Claude (1965). «Man, Culture and Society.» cité par Luc Thoré, *Revue de l'action populaire*: mars.

Ricoeur, Paul (1960). «Introduction.» *Esprit*: no. 11, novembre.

Vadet, Jean-Claude (1968). *L'Esprit courtois en Orient dans les cinq premiers siècles de l'Hégire*. Paris: G.-P. Maisonneuve et Larose.